



أليس في بيتك موضع صغير محصور بين الغرف لا فتحة له ولا شباك سوى مجموعة من الأبواب؟
أغلق الأبواب كلها وأطفئ الأنوار، وجلس هناك في الموضع ذاك وحدك بلا سجادة تفترشها ولا كتاب يؤنسك، ولا هاتف أو أي وسيلة من وسائل الاتصال مع العالم ولا أي وسيلة من وسائل التسلية، أو من وسائل الراحة كالتدفئة أو التبريد أو أريكة...

اجلس فيها ساعتين في سكون الليل في العتمة، بل اجلس ساعة واحدة، بل نصف ساعة، واشرح لنا مشاعرك...
تلك المشاعر المتضاربة المتفاوتة... التي يمترج فيها اليأس والألم والقلق والترقب...
قد تشعر بالاختناق وقد يصيبك الاكتئاب وقد تنها... هذا شيء بسيط مما عانت منه مجموعة من المعتقلات في السجون
السورية...

فهل يعلم الناس بالتفاصيل الصغيرة ما الذي يحدث داخل السراديب والمعتقلات؟

لقد يسر الله لي لقاء بعض المعتقلات وسمعت من كل واحدة معاناتها ورأيت دموعها، وشعرت برجفة صوتها وبالغصة العميقه التي لم تفارقها وهي تسرد قصتها...

الفتاة الأولى كانت في الخامسة والعشرين، رفضت الإعلان عن اسمها على الملاً وتخفت خلف اسم مستعار، قالت لي أشياء كثيرة حزينة وصوتها يتهجد، وأنهت حديثها بأنها تأمل بأن تمسك جلادها بيديها وتضربه وتعذبه وتفعل به كل ما فعله بها، فقد أغاظ عليها بالقول والفعل والتعذيب والإهانة... وعقبت: إن "رجال الأمن" لا يملكون أية مشاعر إنسانية، ولا يعرفون ما

هي الرحمة، هؤلاء ليسوا بشرأً على الإطلاق، يأتون إلى البيت فجأة ويختارون وقت النوم والراحة، يحاصرون البناء ويدخلون الدار كـالاعصار، يتكلمون بالفاظ بشعة ولهمزة مفزرة يفتثرون البيت وقد يقلبونه ويفسدون متاعه وبهينون ساكنيه، ثم يسحبون البنت بكل وحشية إلى سياراتهم ويمضون إلى المجهول تاركين أمها تتنهل وأبوها يتضرع وأخوها يسامون... وإن أصعب شيء في المعتقلات التعذيب النفسي، يأخذونك فلا تعرف إلى أين؟ وتترقب حذراً .. كيف سيستدرجونك بالكلام وبأي الوسائل الوحشية سوف يستعينون عليك لتعترف؟

وفي غرفة التحقيق يستغدون بالفتاة، كلهم أعداء ووحش آدمية، وهي بين يديهم وحيدة ضعيفة، فيضربون البنت على وجهها ويصفعنها بقسوة، ويدفعونها بغلظة فتقع أرضاً، فيدعسون عليها، ويركلونها كما تركل الكرة، يرفسها كل داخل للغرفة وكل خارج.

تخيلوا الصورة:

فتاة نحيلة لا يزيد وزنها عن 49 كغ تتلقى ضربات من حداء ضخم عسكري محصن ومقاسه لا يقل عن 43... ماذا ستفعل بجسمها تلك الركلات، وماذا ستفعل الجلافة بقلبهما الصغير وبراءتها وجهلها بقسوة الحياة؟! وهل ستتصمد تحت ثقل وزنهم حين يقفون فوق جسمها الناعم الطري ويضحكون ويضغطون بكل ثقلهم عليها (وأوزانهم قد تفوق المئة)؟!

قالت لي: و كنت أضع جهاز تقويم على أسنانى ومع كل كف يضربون به وجهي تخرج نافورات من الدم من مناطق مختلفة من لثتي و تكثر الجراح في فمي وتلتهب، ولا يكتثرون بل يزيدون في عذابي ويتحسّسون جروحي ويتقدّسون المكان الحساس المؤلم ليتابعوا الضرب عليه، لم أكن أرتضي البكاء وأراه ضعفاً ولكنّي بكّيت، وبكّيت كثيراً.. عذبني وضربني بأسلال الكهرباء حتى ما عدت أستطيع الوقوف على رجلي، وإن آثار التعذيب تبقى وتتجدد في سجونهم كل يوم، وما زالت باقية على ساقى فلما أرادوا الإفراج عنّي (بعد أشهر من الاعتقال) وجدوني عاجزة لا أستطيع الوقوف على قدمي من الألم والجراح والإعياء فتركوني مدة إضافية حتى استطعت المشي بصعوبة وبرحة واضحة.

وهكذا تمضي الليالي في السجون ثقيلة وبطيئة وقميّة: "الثانية" دقيقة، وـ"الدقيقة" ساعة وـ"اليوم" سنة بحالها... أيام السجن محملة بالقهر والعذابات، وأكثر ما آلم تلك الصبية وحطّم نفسيتها في سجنها "صفقة المبادلة" التي تمت بين الثوار وبين النظام، إذ آلمها أنهم اختاروا 300 معتقل وما كانت من بينهم (وهو عدد كبير نسبياً) فشعرت بالغبن والقهر وفقدت صوابها وإحساسها بالمكان والزمان... صرخت بأعلى صوتها، سُبَّت الرئيس وسبَّت الثوار. ثم سقطت على الأرض، وأصبت بانهيار عصبي.

أخذوها للمشفى وأعطوها إبرة نامت من تأثيرها نصف ساعة، ثم عادت للصراخ وتدهورت حالتها ودخلت المشفى عدة مرات وقضت فيه عدة أيام.

وقابلت المزيد من الفتيات وكلهن رفضن الإفصاح عن أسمائهن رغم إقامتهن خارج سوريا، كلهن خائفات! ألهمه الدرجة وصل تأثير النظام؟! وامتد لآلاف الكيلو مترات خارج حدود الوطن؟

أكثرهن في العشرين، صغيرات وغير متزوجات ولا يعرفن شيئاً من الدنيا بعد، بدأت كل واحدة منهن حياتها الوعادة وأحلامها الوردية في سجون الإرهاب.

وعلمت منها أن مئات البنات جربن "المنفردة" في السجون الأسدية، غرفة طولها متر وعرضها نصف متر وبابها ثخين سميك كالجدار، ما لها إلا طاقة صغيرة في السقف، والطاقة هي وسيلة الاتصال الوحيدة بين الفتاة وبين جلادها، يرمون

البنت في تلك الغرفة ويقلون الباب ويرحلون، وما أدراك ما صوت القفل وما الذي يصنعه في النفوس من تأثير ومن مشاعر سلبية مخيفة؟

وتجلس الفتاة وحدها خلف الباب الموصد، تحاول معرفة الليل من النهار، والصيف من الشتاء، تقف على رؤوس أصحابها لعلها تشعر بنسمة المساء في الصيف أو بدبء الشمس في الليالي الباردة ليس في الغرفة إلا بطانية شتوية تنام عليها فكأنها تنام على الأرض الجرداء، لا تستطيع مد رجليها -في غرفة طولها متر- فتتкор على نفسها حتى يبس جسمها ونحل عودها.

وتنام المعتقلة على الأرض بالمنفردة أيامًا وليالي طويلة، وتعاني من مشاعر قاسية تشعر بأن العالم تخلى عنها وتتابع حياته ونسيها.

هي وحدها مع الحشرات، والباب مغلق ويساهم بها أحيانًا جرذ أو أكثر يتجلو هنا أو هناك، والصراصير تستوطن المكان وكم أيقظتها وهي تمشي على وجهها أو يديها.

وللنساء ظروف معينة وحاجات خاصة تكرر كل شهر، والبنت تستحي وتختفي وضعها هذا عن أبيها وأخيها فلما دخلت السجن اضطرت لطلب حاجتها من سجانها، وكم شعرت بالظلم والقهر أن يطلع رجل مجرم غريب على أسرارها ويعرف أخص خصوصياتها وقد حرصت كل الحرص على إخفاء ذلك الأمر عن أقرب الناس إليها. الأمر الذي زاد عذابها وحنقها على سجانها.

الوضع فظيع داخل السجون والأمراض منتشرة فيه بكثرة، بما فيها الأمراض القديمة التي انقرضت، لقد رجعت الأمراض وغزت المعتقلات والسجون فتصاب واحدة من كل عشرين معتقلة بمرض مزم من عضال... أمراض حاربها العالم لعقود فذهبت وبادت واستطاع النظام الأيدي استحضارها من جديد، باستثنى جراثيمها في أقبية العفنة (مثل السل والطاعون). ولقد ظهرت في المعتقلات أمراض جديدة وحساسية من نوع غريب، فسقط شعر إداهاما حتى صلعت، ولازالت الأخرى حكة جلدية واحمرارا لم يفارقها حتى اليوم وقد غادرت السجن من شهور.

هذا بعض ما سمعت، وأكتفي به كيلا أطيل عليكم، وأختتم بتذكرة صغيرة:

أيها القارئ الكريم تنتظر أنت ساعة عند طبيب الأسنان أو دققيتين عند إشارة المرور فتتضجر وتشعر بوقتك يهدى ويضيع بالانتظار، ويعلق بك المصعد بين طابقين فتثور وتدق الباب وتندى النجدة وتشعر بالاختناق.. فماذا تقول السجينات وهن حبيسات في مساحة تساوي مساحة مصعد صغير لا يكاد يتسع لخمسة أشخاص، وفي ظروف سيئة ومكان وسخ ليس فيه أي شيء من مقومات الحياة وفوقها فيه الذل والضرب والإهانة والتعذيب وتوريث الأمراض النفسية والجسمية؟

ويؤلمك فك فلا تنام الليل حتى إذا أصبح الصباح كنت في عيادة الطبيب، أو تغدو من ليتك إلى الطوارئ، فكيف بمن كانت آمنة في بيتها معافاة في بدنها فتسببوا لها بالعاهات والأمراض والألام المبرحة والقرح والكسور... وعن سابق عمد وإصرار؟

المصادر: